٨٨ – المرجع السابق – جدائى – ص ٤٥٣ .

٨٩ – المرجع السابق – جبريل وإبليس – ص ٤٣٥ .

٩٠ – كليات إقبال – ضرب كليم – ص ٥٧٠ .

٩١ – المرجع السابق – ص ٤٩٨ .

٩٢ – المرجع السابق – فقر وراهى – ص ٥١٢ .

٩٣ – المرجع السابق – علم وعشق – ص ٤٨٣ .

أهم المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم

٢ – اردو هندي هندوستاني – انتخاب من مجلة هندوستاني إله آباد من عام ١٩٣١م – ١٩٤٨م – ص ٤١ وما بعدها – بتنه – الهند ١٩٩٣م .

٣ – د / سميع الله – فورت وليم كالج – ص ٦٧ – لكهنو – الهند ١٩٨٩م .

٤ – كليات إقبال – بانكـ درا – همالة – ص ٢١ – لاهور – باكستان – ط ٧ – ١٩٨٦م .

٥ – غلام رسول مهر – مطالب بانكـ درا – ص ٨٩ – لاهور – باكستان ١٩٨٧م .

٦ – د / أحمد محمود الساداتي – تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم – الجزء الأول – ص ١٥ – القاهرة – مصر ١٩٥٤م .

٧ – د / غلام حسين ذو الفقار – اردو شاعري كا سياسي اور سماجي بس منظر – ص – لاهور – باكستان ١٩٦٦م

٨ – نجيب الكيلاني – إقبال الشاعر الثائر – صفحة ٣٥ – القاهرة – مصر ١٩٥٩م .

٩ – غلام رسول مهر – مطالب بال جبريل – ص ٤٠ .

١٠ – زهير ظاظا – ترجمة ديوان جناح جبريل – ص ٣٥٧، ٣٥٨ – دمشق – سوريا ١٩٩٨م.

١١ – بروفيسر محمـد جليل نقوي – مطالعه إقبال – ص ٤ – لاهور – باكستان ١٩٨٩م .

إقبال وتفرده الفكري

أ.د/ أحمد محمد أحمد عبد الرحمن
كلية اللغات والترجمة
جامعة الأزهر القاهرة

المقدمة

عندما نتناول فكر إقبال، فلا نتحدث عنه كشاعر أثرى الحياة الأدبية في شبه القارة الهندية، ولكن نتحدث عنه كفيلسوف استقى أفكاره من الإسلام والثقافة الهندية التي تضرب بجذورها في القدم، وإن هذه الجذور لا يمكن التضحية بها لمن يريد أن يتعمق في فهم فكر إقبال، ومدى تأثير هذه الثقافة في إبداعاته سواء كانت في الفارسية أو الأردية او الإنجليزية .

هذا وقد افتخر إقبال في مواضع عدة من أشعاره، بانه من سلالة البراهمة التي أدركت من حقائق الإسلام وأسراره ما لم يستطع أن يدركه غيرها من الطبقات الهندية الأخرى، ومن هنا حفل شعر إقبال الأردي بذكر العديد من الشخصيات الهندية غير المسلمة، تلك الشخصيات التي تركت بصمات لا تنسى في تاريخ الهند، وإقبال كما نعلم يعرف الحق بالرجال، فآثر أن يكتب عنهم في دووايتة الشعرية، ويمتدح أفكارهم ومساهماتهم في تاريخ البشرية، حتى ولو كان هؤلاء على غير ملته، فضرب بذلك مثلاً يحتذى به في التعامل مع الآخر، ومن المؤكد أن هذا الجانب الإنساني في إبداعات إقبال، هو أحد العوامل الهامة التي كتبت له القبول بين من طالعوا أشعاره .

ولك أن نتصور كم سيكون العالم وحشياً وقاسياً إذا انغلقت كل جماعة على نفسها، وقررت أن تتعامل مع الآخرين على أنهم أعداء يجب محاربتهم لمجرد كونهم مختلفين؟!! رغم أن لنا في القرآن والرسول أسوة حسنة، " *يا أيها الناس إنا جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم* " صدق الله العظيم .

إن أهم ما يميز شخصية وفكر إقبال(١) هو إحاطته بثقافات الشرق والغرب، ولا توجد منظومة من منظوماته إلا وفيها إشارة إلى فلسفات الشرق والغرب. والمقصود بالثقافة الشرقية هنا هي: الثقافة الإسلامية(فارسية وعربية) ، والثقافة الهندية، لما لا وقد تشبع إقبال

بهذه الثقافة التي تتميز بالتنوع، فهي تتلائم مع كل حاجات كل إنسان بغض النظر عما إذا كان صغيراً أو كبيراً، أو أبيض أو أسود؛ فهي ثقافة تعتبر الحقيقة واحدة ولكنها ذات جوانب متعددة، هذا إلى جانب تسامحها ونظرتها الواسعة للأشياء، وإقبال نفسه يقر بهذا:

میں اصل کا خاص سومناتی
آیا میرے لاتی ومناتی
تو سید ہاشمی کی اولاد
میری کف خاک برھمن زاد
ھے فلسفہ میرے آب وگل میں
پوشیدہ ھے ریشہ ہائے دل میں(٣)

الترجمة:

وأنا في الأصل من سومنات(٣) ، وأبائي من عبّاد اللات ومناة.

وأنت شريف من أولاد هاشمي، وأما طيني فمن نسل البراهمة(٤).

في مائي وطيني هذه الفلسفة، وأنها متغلغلة في عروقي.

وإقبال هنا يفخر بهذه الأسرة العريقة التي ترتد في أصولها الاولى إلى طبقة البراهمة الأشراف، التي تحافظ على الدين والتقاليد، فقد ورث عنهم نزعتهم الدينية، التي تنفذ إلى أعماق الحقائق. هذا مأكده في ديوانه "رسالة المشرق":

مرا بنگر کہ در ھندوستان دیگر نمی بینی
برھمن زاد آشنا رمز روم وتبریز ست(٥).

(أنظر إليّ فما ترى في الهند غير رجلاً من سلالة البراهمة عارفاً بأسرار الروم وتبريز). إشارة إلى جلال الدين الرومي، وشمس الدين التبريزي.

لقد كان إقبال يحتفظ في أعماق فكره ووجدانه بتلك الصورة الرائعة لهذه الثقافة الهندية الإسلامية، التي تستهدف تعميق الإنسان لمعرفته بنفسه، وبالآخرين المحيطين به. وهنا تظهر عبقرية فكر إقبال، الذي يقوم على التوفيق بين حضارة الشرق ممثلة في الثقافة الإسلامية والهندية، وحضارة الغرب المعاصرة، محافظا على ذاتيته عاملاً على إيجاد التوازن بين حاجات الإنسان المادية والروحية فيقول:

مجھے تہذیب حاضر نے عطا کی ھے وہ آزادی
کہ ظاھر میں تو آزادی ھے، باطن میں گرفتاری!
تو اے مولائے یثربؐ آپ میری چارہ سازی کر
مری دانش ھے افرنگی مرا ایمان ھے زناری!

(لقد منحتني الحضارة الحديثة الحرية، التي هي في الظاهر حرية، ولكنها في الواقع عبودية، فخذ بيدي يا سيد يثرب، إن معرفتي أوربية، وإيماني برهمي).

ويقول : یہ نکتہ میں نے سیکھا بوالحسن سے
کہ جاں مرتی نہیں مرگ بدن سے
چمک سورج میں کیا باقی رہے گی
اگر بیزار ہو اپنی کرن سے!(٦)

(علمني أبو الحسن ما يلي: إن فناء الجسد ليس فناء الروح، لا يمكن للشمس أن تظل مشرقة إن تخلت عن أشعتها!).

إن الإنسان في نظر إقبال ليس إلا كون مصغر تتمثل فيه جميع دقائق الكون الأكبر، مستلهما في ذلك حكمة الشرق، التي تقول: أن الإنسان ليس مجرد وحدة فيزيائية، فهو مخلوق عقلي وروحي في نفس الوقت.

وهذه رؤيا شاملة تقوم على مقارنة الحياة في الشرق وفيه الدين المعطل، والحياة في الغرب وفيه العلم محروم من الدين، كل هذا جعل إقبال يقف على العناصر الإيجابية، التي يفتقدها الشرق والغرب على السواء، ومن هذه الرؤيا تكون فكر إقبال.

ومما لا مرية فيه، لم يكن إقبال هو أول من قام بهذه المحاولة، بل سبقه فيها سر سيد أحمد خان (٧)، ولكن من بعض الوجوه، حيث ركز في دعوته على الأخذ بالحضارة الغربية، ولا سيما في أساليبها في التعليم والتربية، والأخذ بعلومها وثقافتها، فكانت خطته الإصلاحية تهدف في المقام الأول على التوفيق بين معطيات الحضارة الغربية والقيم الإسلامية، وقد أسس لهذا الغرض كلية على جره عام ١٨٥٧م، واستقدم لها أساتذة من انجلترا ، وكان عل رأسهم السيد توماس ارنولد(٨)، الذي تتلمذ على يديه إقبال عندما ذهب إلى لاهور للحصول على الليسانس، وقد نجح هذا المستشرق أن يعرّف إقبال بطرق البحث العلمي الحديث.

حملت هذه الصداقة إقبال في نهاية الأمر على الرحيل إلى انجلترا خلف أستاذه، فمن جانب شعر ارنلد بسعادة، إذ أثمر جهده وصار تلميذه سببا في شهرته في دنيا العلم، ومن جانب

آخر إعتوف إقبال بأن أساس الحس الفكري الذي وضعه بداخله سيد مير حسن(٩) ، واكتمل بنيانه بإشراف الحكيم السيد ارنلد (١٠)([1]).

وهكذا تيسر لإقبال مرشدون أكفاء في مراحله التعليمية، ومن هؤلاء "براون"و"نيكلسن"(١٠١) بصفة خاصة، إذ قدم إقبال للقارئ الغربي بترجمة الديوان الفارسي "أسرار الذات" إلى الإنجليزية مع التحشية والتقديم له.

كما أن إقبال تشبع بالثقافة الإسلامية، ولا توجد قصيدة من قصائده إلا وبها إعتراف بهذه الثقافة، التي تفتح صدرها للأفكار الأخرى، فالإسلام يقبل في يسر أن تجاوره أديان وثقافات أخرى يعيش مع أتباعها في سلام، فالمعرفة كالشمس لا يستطيع الإنسان حجبها عن نفسه حتى لو أراد ذلك، وهذا ما تعلمه من شيخ الكتّاب:

شيخ مكتب هے اک عمارت گر
جس کی صنعت هے روح انسانی
نکته دلپذیر تیرے لیے
که گیا هے حکیم قآانی
"پیش خورشید برمکش دیوار
خواهی ار صحن خانه نورانی"

(يبني معلم المدرسة صرحاً صناعته روح الإنسان، من أجله قال الفيلسوف كاغاني(شاعر فارسي من القرن السبع عشر): كلمة سحرتني" لا تبني جداراً أمام الشمس، إذا أردت نوراً في باحة دارك).

لقد حاول إقبال أن يتخذ هذا المنهج العقلي، ولكنه لم يستطع التغلب على ما في المنهج العقلي من شك وحرية لا تعرف الحدود، ولذلك نجده يقر بعد ثقته في نجاح العقل في هذه المهمة، فالإيمان عنده تصديق حازم بالعقل يلازمه سكون النفس، والدين الحنيف نفسه يحث على التفكر والتدبر للاقتناع بالعقل، ثم الاطمئنان بالقلب. ومن هنا وجدناه ينكر فكرة دمار الذاتية:

هر چیز هے محو خود نمائی
هر ذره شهید کبریائی!

---

[1] – كليات إقبال المقدمة

بے ذوق نمود زندگی، موت
تعمیر خودی میں ہے خدائی!
رائی زور خودی سے پر بت
پر بت ضعف خودی سے رائی! (١٢).

الترجمة:

كل شيئ يسعى جاهداً للظهور، وكل جزئي يتهالك رغبة في النمو!

الحياة، دون ذوق الظهور، موت، بناء الذات هو القوة ــ العظمى!

قوة الذات تحول حبة الخردل إلى جبل؛ وخور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل.

أدرك إقبال كغيره من المصلحين المسلمين في العصر الحديث، مدى التناقض بين واقع المسلمين وحقيقة دينهم، فالإسلام كما يراه كل عاقل؛ هو دين عمل وقوة وتنظيم، ولكن المسلم الجاهل لا يستفيد من دينه شيئاً من ذلك، لأنه يسيئ فهم هذا الدين، الذي تحول في عصور الظلام إلى أخلاق سلبية، ومعتقدات خرافية، وتصوف يشل حركة الحياة.

وهذا نابع في الحقيقة من نزعة الفكر الهندي القديم المغرق في الروحانية، واعتبار المادة والظواهر المادية مظهراً خادعا لا قيمة لوجوده البته. ومن المعلوم أن القول بوحدة الوجود (١٣) أصل من أصول العقيدة الهندوكية؛ القائلة أن "برهما"، هو كل شيئ، وتأثر المسلمون ببعض خصائص الثقافة الهندية أمر معروف، ولا سيما في مجال التصوف.

ومن هنا وجدنا كل مصلحي الهند من مسلمين وغير مسلمين في العصر الحديث، يركزون على تنقية العقائد والفكر الهندي، مما شابه من جمود وانحراف، وقد تميزت هذه الدعوات بتنوعها واختلاف نزعاتها بين سلفية واعتدالية وتحررية مفرطة، وكان إقبال بلا شك مع ما ذكره من شخصيات هندية غير مسلمة في دواوينه من المعتدلين، ونادى معهم، وكان دقيقاً في ندائه كما يقول الدكتور البهي في ندائه، بإعادة بناء التفكير الديني في الإسلام، دون التعبير بالإصلاح الديني؛ لأن أية محاولة للتجديد أو الإصلاح الديني في نطاق الإسلام، لا يمكن أن تحمل على معنى الإصلاح والتجديد بدلالتها في الحقيقة، لأن الإسلام دين كامل مصدره القرآن، الذي لا يقبل بطبيعته أي تغير لحكم من أحكامه، ومن ثم لا يمكن أن يحدث أي تطور في الإسلام ذاته بأي معنى من المعاني.

إن التجديد والإصلاح، الذي يعنيه إقبال في فلسفته ينصرف للفكر الإسلامي نفسه، فيما يأخذ به من مفاهيم، وما يحاول أن يوجده من توافق بين التطور الحضاري، وبين المبادئ الإسلامية الثابتة (١٤).

لقد استشعر إقبال الفراغ الفكري، الذي يحيط بالشباب المسلم في ظل هيمنة الفكر الغربي عليه، وألح على فتح باب الاجتهاد، واستخدام الإجماع كأصل من أصول التشريع، استخداماً يغطي كل كل الحاجات المستجدة في دنيا المسلم ومجتمعه.

والمنظومة التالية، التي جاءت في ديوانه"ضرب كليم"بعنوان (مرد مسلم) أي الإنسان المسلم؛ توضح لنا فكره حول نزعته التواقة إلى استنهاض الإنسان المسلم من خموله وسلبيته، وتسخير الطبيعة من حوله بالوسائل العلمية لتغيير مجتمعه، وتنميته وتحريره من كل عوائق النمو والازدهار:

هر لحظہ ہے مومن کی نئی شان نئی آن
گفتار میں کردار میں اللہ کی برهان!
قهاری وغفاری وقدوسی وجبروت
یہ چار عناصر ہوں تو بنتا ہے مسلمان!
همسایہء جبریل امین بندہء خاکی
ہے اس کا نشیمن، نہ بخارا نہ بدخشان!
یہ راز کسی کو نہیں معلوم کہ مومن
قاری نظر آتا ہے، حقیقت میں قرآن!
قدرت کے مقاصد کا عیار اس کے ارادے
دنیا میں بھی میزان، قیامت میں بھی میزان!
جس سے جگر لالہ میں ٹھنڈک ہو وہ شبنم!
دریاؤں کے دل جس سے دهل جائیں، وہ طوفان!
فطرت کا سرود ازلی اس کے شب وروز
آهنگ میں یکتا صفت سورہء رحمن!
بنتے ہیں مری کارگہ فکر میں انجم
لے اپنے مقدر کے ستارے کو تو پہچان! (١٥)

الترجمة:

إن للمؤمن شاناً وآناً جديداً كل لحظة، يتجلى الله في اقواله وأفعاله.

السلطان والرفق والصفا والقدرة الكلية، هذه العناصر الأربعة ضرورية للمسلم!

إنه جار جبريل، كما هو إنسان الارض، ولا يرتبط ببخارى(١٦) ولا ببدخشان(١٧).

ما من أحد يعرف هذا السر: المؤمن الذي يبدو أنه قارئ (القرآن) وهو القرآن حقاً.

نواياه على مقياس مصائر الطبيعة، إنه الميزان في هذا العالم، إنه القسطاس في يوم الحساب.

إنه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان، إنه السيل الذي ينعش قلب الأنهار.

أيامه وليليه تعزف لحن الطبيعة الخالد، لحناً مثل سورة الرحمن في القرآن ليس لموسيقاها نظير.

في معمل فكري تصنع النجوم، وأنت يا هذا إعرف نجم قدرك!

بهذه الروح المفعمة عبر إقبال في آخر أبيات هذه المنظومة عن حقيقة الحرية، التي منحها الله للإنسان، بعد أن هيأه لتحمل مسؤليته من تلقاء نفسه في اختيار تشكيل مصيره وتحديد سلوكه من مبدأ قوله تعالى: " إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها "(الإسراء٧).

ولا شك أن للتفكير الأوربي دور بارز في صياغة فكر إقبال في هذه النقطة بالذات، حيث حارب بها آفة التواكل التي أصابت المجتمع الإسلامي، واعترف إقبال نفسه بهذا في مقدمة كتابه" تجديد التفكير الديني في الإسلام " بقوله:" لقد أنفقت معظم حياتي في في دراسة الفلسفة الأوربية، بحيث أصبحت هذه الفلسفة طبيعتي الثانية، وسواء كان ذلك عن وعي أو غير وعي، فأنا أدرس أوضاع الإسلام وحقائقه إنطلاقاً من وجهة النظر نفسها" (١٨).

ومن هنا وجدنا إقبال يصب جام غضبه على محترفي رسالة الدين، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فيقول:

یہ پیران کلیسا وحرم!اے وائے مجبوری!
صلہ ان کی کد وکاوش کا ھے سینوں کی بے نوری!(١٩)

(ما أجدر أصحاب المناصب العليا في الكنيسة وفي الإسلام بالرثاء، حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم).

ويقول :

رہ ورسم حرم حرم نا محرمانہ!
کلیسا کی ادا سوداگرانہ
تبرک ھے مرا پیراھن چاک
نہیں اھل جنون کا یہ زمانہ!(٢٠)

(ما طقوس المسجد، إلا انتهاك لحرمة المسجد!

ما سلوك الكنيسة، إنها تجارة بالكنيسة

إن خرقتي الممزقة متبركة، هذا العصر ليس عصر وجد مجنون!).

وبتقد ما لحق بالخانقاهات الصوفية فيقول:

تها جهاں مدرسہء شیری وشاهنشاهی
آج ان خانقاهوں میں هے فقط روباهی!(٢١)

(هذه الخانقاهات، التي كانت ذات يوم مدارس للأسود والأباطرة، أصبحت اليوم لا تضم إلا الثعالب).

وإقبال هنا يرثي حال المسلمين، وما وصلت إليه عقيدتهم السمحة؛ بسبب ما داخلها من تشويه وزيف على مر الزمن، حتى قدس المسلمون الأولياء، وأدعياء الولاية، مما أغراهم بإنكار قانون الوجود الأبدي(السببية)، وقد جرهم هذا بالتالي إلى التقاعس والتواكل إلى حد نكران حرية الإرادة والاختيار والتسليم بالقدر كقانون أزلي لهذا الوجود.

ومن هنا وجدناه يثور على مدعي الولاية من ورثة الأولياء بقصيدة عنوانها" باغى مريد" (المريد الثائر)، فيتهمهم بأكل الربا، وكيف أنهم يعيشون في رغد من العيش من هذه التجارة الرابحة، التي يخدعون بها جهلاء المسلمين وعامتهم.

هم کو تو میسر نهیں مٹی کا دیا بهی
گهر پیر کا بجلی کے چراغوں سے هے روشن!
شهری هو دیهاتی هو مسلمان هے ساده
مانند بتاں پجتے هیں کعبے کے برهمن!
نذرانہ نهیں! سود هے پیران حرم کا
هر خرقہ سالوس کے اندر هے مهاجن
میراث میں آئی هے انهیں مسند ارشاد
زاغوں کے تصرف میں عقابوں کے نشیمن!(٢٢)

الترجمة:

لا يتيسر لي حتى فانوس من الطين المحروق

والمصابيح الكهربائية تنير مزار الولي

المسلم بسيط، سواء كان حضرياً أم ريفياً

يعبدون براهمة الكعبة، كأنهم أصنام.

ليس ما يتلقاه الولي(نقيب الشيخ) نذوراً، ولكنه نتاج ربا.

يتخفى المرابي تحت عباءة ماكرة

نالوا بالوراثة كراسي الأولياء

واستولت الغربان على أوكار النسور.

كل هذا جعل إقبال يطوف الهند طولاً وعرضاً من أجل تصيح بعض المفاهيم الخاطئة التي لحقت بالإسلام، وذلك من خلال محاضرات تحمل عصارة فكره، جمعت لاحقاً باسم " تجديد التفكير الديني في الإسلام "(٢٣) ، بدأها بمدراس في جنوب الهند عام ١٩٢٨م، والحقيقة أن هناك عاملين أساسيين وراء هذا الجهد العظيم، الذي قام به إقبال لنصرة أمته:

١ــ عامل سياسي، يتمثل في السيطرة على شبه القارة الهندية، بعدأن فشل الهنود(مسلمون وغير مسلمون) في عام ١٨٥٧م من طرد المستعمر، مما جعلهم فريسة للاضطهاد والاستعباد الوحشي من قبل الإنجليز.

٢ــ عامل ديني، يتمثل في التناقض بين واقع المسلمين وحقيقة دينهم، تمثل هذا في:

أ ــ الجهل المطلق بالعلوم العملية، وأساليب المدنية.

ب ــ فساد العقيدة، وتحول الدين إلى وثنية مستترة وراء عبادة الأولياء، وتقديس الأضرحة، وتقدير المشعوذين والسحرة.

جـ ــ إنبهار كثير من المثقفين، وخاصة الشباب بالحضارة الغربية ومباهجها، إذ لم يجدوا في واقع آبائهم إلا ما يبعث على الموت والقنوط، ويضيق بمطامحهم، ويخنق آمالهم.

ومن هنا تصدى إقبال بفكره وشعره لمواجهة هذا التحدي:

١ــ باستعادة روح الإيمان في هذا الكون، أو رد الاعتبار لما هو روحي.

٢ ــ وضع مبادئ جديدة توجه المجتمع البشري نحو المساواة والأخوة الإنسانية على أساس روحي، هذا هو القاسم المشترك بينه وبين كل الشخصيات التي جاءت في دواوينه الشعرية.

لهذا لم يجد إقبال أمامه إلا الإسلام كأحسن نظام يلائم هذه البلاد(شبه القارة الهندية)؛ على أساس أنها عالم مصغر يجمع بداخله ذلك التنوع السلالي والثقافي والديني واللغوي، هذا النظام الذي يسمح لكل هذه العناصر بالعمل في ضوء ميراثها الديني والثقافي.

إن كل قارئ لدواوين إقبال الشعرية يدرك تماماً إيمانه الكامل؛ بان منهج الإسلام الصحيح هو خير مناهج السلوك وأحسنها في بناء أمة وصلاحها، وأنه لا بد للفرد أن يحافظ على خصائصه الفردية دون أن يمسها أي ضرر، ولكنه في سبيل ذلك عليه أن يضحي بطموحاته الشخصية، وأهدافه الذاتية في سبيل أمته.

هذا المثال الأعلى يمكن لكل إنسان أن يحققه بشرط أن يعمل له بجد، وذلك دون قيد بشأن الدين الذي ينتمي إليه، أو الطائفة التي ينتسب إليها، وهذا ما نقله إقبال للآخرين عن عظمة الإسلام، الذي يجمع بين البشر جميعاً، وأننا خلايا لجسم واحد يرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطاً وثيقاً، شريطة أن يكون جوهر كل رسالة، هو الحب، وخلوها من كل نزوة أو غرض ذاتي.

دل هے مسلماں میرا نہ تیرا
تو بھی نمازی، میں بھی نمازی!
میں جانتا ہوں انجام اس کا
جس معرکے میں ملا ہوں غازی!
ترکی بھی شیریں، تازی بھی شیریں
حرف محبت، ترکی نہ تازی!(٣٤)

(ليس القلب "مسلماً" لا قلبي ولا قلبك، الصلاة لك عادة، والصلاة لي عادة

النـــزاع الذي أمثال الملاَ أبطاله، أعرف سلفا كيف سنتهي.

لغة الترك عذبة، ولغة العرب عذبة أيضاً، ولكن لغة الحب ليست مقصورة على التركية والعربية).

ويقول:

شہید محبت نہ کافر، نہ غازی!
محبت کی رسمیں نہ ترکی نہ تازی!
وہ کچہ اور شے ہے، محبت نہیں ہے
سکھاتی ہے جو غزنوی کو ایازی!
یہ جوہر اگر کارفرما نہیں ہے

تو هیں علم وحکمت فقط شیشہ بازی!
نہ محتاج سلطاں، نہ مرعوب سلطاں
محبت هے آزادی وبے نیازی!
مرا فقر بهتر هے اسکندری سے
یہ آدم گری هے، وہ آئینہ سازی!(٢٥)

الترجمة:

إن شهيد الحب، ليس الكافر ولا المجاهد.

إن شعائر الحب ليست تركية ولا عربية.

إنها شيئ آخر، ليس الحب الذي علّم محمود الغزنوي أن يكون مثل إياز(غلامه).

لولا مساهمة مشكاة الحب، لكانت المعرفة والحكمة لعبة في لآلئ من زجاج.

الحب لا يحتاج إلى سلطان، ولا يخشى من سلطان. الحب حرية واستقلال

فقري أفضل من مملكة الإسكندر، هذا يبني الرجال، وذك صناعة المرآة.

هذا هو جوهر رسالة وفكر إقبال يقوم على إيجاد إنسانية قوامها الحب المتبادل، سواء كان موطننا الشرق، أم كنا من أبناء الغرب، فلا أهمية للمكان، ولكن المهم هو صلاحية القيم الإنسانية في ذاتها، فهذه القيم لا يجب ألا تتعصب لوطن أو لجنس أو لثقافة؛ إذن هو فكر يقوم على التوفيق المستمر بين معطيات العقيدة الدينية، وبين الفكر الإنساني أياً كان مصدره.

وقد أشاد بفكر إقبال كبار رجال الدين المسلمين وغير المسلمين، نظراً لنزعته الإنسانية، التي تنطوي على احترام الآخر، فيقول عنه أكبر علماء المسلمين في عصره الشيخ أسلم الجراجبوري:

"قرأت الشعر بالعربية والفارسية والأردية، ولا حرج علىَ أن أقول: ان إقبال أعظم شعراء المسلمين، إن كلامه ليفيض بالحقائق الإسلامية، ولقد هدى ناشئتنا سواء السبيل. إن إقبال حذق علوم الغرب، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التي بصّرهم بحقيقة الإسلام وعظمته" (٢٦).

هذا وقد امتدحه الهنادكة عندما دعاه مهراجا إمارة ميسور في مدينة بنجلور الهندية عام ١٩٢٩م، وقال فيه:" يقول المسلمون أن إقبالاً لهم، والحق أنه لنا جميعاً لا يختص جماعة أو ديناً، فإن افتخر المسلمون بأنه أخوهم في الدين، فنحن نفخر به بأن إقبال هندي" (٢٧).

نعم لقد كان إقبال يقترح على الغرب منهجا وفكراً جديداً يقوم على الوحدة الإنسانية، ويقر على الأرض حضارة الضمير والرحمة، تتحطم فيها اللون، وعصبيات الجنس، ويبطل اللصوصية العالمية، التي تتمثل في الاستعمار وعبادة رأس المال. هذا هو ما أكده في منظومته الطويلة "طلوع اسلام":

یهی مقصود فطرت هے، یهی رمز مسلمانی
اخوت کی جهانگیری، محبت کی فراوانی!
بتان رنگ وخوں کو توڑ کر ملت میں گم هو جا
نہ تورانی رهے باقی، نہ ایرانی نہ افغانی (٢٨)

الترجمة:

هذا هو هدف الفطرة، وسر الإسلام، أن تعم الأخوة في الدنيا، وتكثر المحبة.

فلتحطم أصنام اللون والدم، ولتندمج في الملة، فلا تبقى الدعوة إلى التوراني والإيراني والافغاني.

ويضيف:

هوے نے کردیا هے ٹکرے ٹکرے نوع انسان کو
اخوت کا بیاں هو جا، محبت کی زباں هو جا
یہ هندی، وہ خراسانی، یہ افغانی، وہ تورانی
تو اے شرمندہء ساحل اچهل کر بیکراں هو جا (٢٩)

الترجمة:

لقد فرق الجشع البشرية، فلتكن بياناً للأخوة، ولساناً للمحبة.

هذا هندي، وذاك خراساني، وهذا أفغاني، وذاك توراني، فيا أيها الخجول من الساحل! إقفز وكن بحراً بلا ساحل.

هذه هي المبادئ، التي تنكر التعصب الجنسي، وتجعل الناس سواسية كأسنان المشط، وتعلي من قدر الروح على المادة، وتحرم الغزو الاقتصادي، الذي يؤدي إلى الغزو الاستعماري، هذا هو لب فكر ورسالة إقبال إلى العالم، فما أحوجنا إلى هذا الفكر الآن، وبهذا الأمل ربما يتحقق حلم الوفاق الحضاري بين الشرق والغرب.

الخاتمة

لقد كان إقبال منذ طفولته مرهف الحس ملهم البصيرة، ولكن كان له أيضاً عقل عملي ناقد، يحاول أن ينفذ به إلى أعماق الحقائق، فهو لا يمكن أن يقنع بالقشور، أو بجمجمة"الدروشة". إنه يرفض إيمان التقليد، ويعده سبة للعقل البشري، وبعد طوفة مرهقة من البحث والدراسة والتأمل، وجد أن الإسلام العدو الأول للأصنام... كل الأصنام في نطاق الفكر، أو نطاق العقيدة، كما أن الإسلام يرفض وثنية الألوان والأجناس والثقافات، لأنها دلالة التعصب المقيت، والتعصب إهدار لكرامة الفكر وقدسيته.

لقد انتهى إقبال إلى الإقتناع بأن المسلمين المحدثين لا يعرفون دينهم حقاً، وأن كل ما جاء به القرآن الكريم صحيح، ولكن مفسري القرآن جعلوها خاضعة لتأويلاتهم الزائفة:

احكام ترے حق هیں، مگر اپنے مفسر
تاویل سے قرآن کو بنا سکتے هیں پازند! (٣٠)

(كل أحكامك حق، ولكن المفسرين يستطيعون، أن يجعلوا من القرآن "بازند" المجوس).

لا شك أن إقبال قد استفاد كثيراً من الفلسفة الهندية، تلك الثقافة التي أدت دوراً بارزاً في فكر إقبال إلى جانب الثقافة الإسلامية، فيما يتعلق بعرفان النفس والعمل والزهد، ويستطيع كل قارئ لآثار إقبال الفكرية أن يلمس هذا الأثر بسهولة، وإقبال يشيد في دواوينه الشعرية بالحضارة الهندية الإسلامية وفضلها على العالم:

خاور کی امیدوں کا یهی خاک هے مرکز
اقبال کے اشکوں سے یهی خاک هے سیراب!
چشم مہ وپروین هے اسی خاک سے روشن
یہ خاک کہ هے جس کا خزف ریزہ درناب
اس خاک سے اٹھے هیں وہ غواص معانی
جن کے لیے هر بحر پر آشوب هے پایاب (٣١)

إن أرض الهند هي مركز الشمس الساطعة، التي تنير العالم كله، فهي مرتوية بدموع إقبال.

وعيون القمر والنجوم مضيئة بفضل ترابها، وذرات ترابها كاللآلئ الثمينة، وخرج من ترابها الكثير من الحكماء، الذين استطاعوا تسخير كل بحر موّاج.

ومن هنا وجدنا إقبال في منظومته رسالة الخلود يلتقي بـــ "وشوامتر" أحد العارفين الهنود(صديق العالم)، وذكر لنا إحدى حكمه التي كان إقبال دائما يراها مفتاح نجاح الإنسان على وجه الارض، والتي تقول: الكافر اليقظ ، أفضل من المتدين النائم في الحرم(العبادة)، هذا هو فكر إقبال الحقيقي، الذي يعتبر أن الكافر الحقيقي؛ هو الجاهل بحقيقة نفسه المبدد لطاقاتها.

وقد لاحظ إقبال التشابه العجيب بين الفكر الهندي والفكر الإسلامي فيما يتعلق بفلسفة العمل، فيقول في مقدمة منظومته "اسرار خودي": أن الإسلام يرى أن"أنا" مخلوق ينال الخلود بالعمل" وهذه هي الفكرة التي فسَر بها "شنكر اتشاريه" كتاب الهندوك المقدس" جيتا"، وفسر بها محي الدين بن عربي القرآن حين حاول القضاء على الأعجمية التي لحقت بالتصوف..... لقد خاطب فلاسفة الهند العقل، بينما خاطب شعراء إيران القلب، فكانوا أشد خطراً، وأكثر تأثيراً،...فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل" (٣٢)

وأنا أعتقد لو أن الأمة الإسلامية تبنت هذا الفكر لخرجت من محنتها، وإلا ما قيمة شريف من بني هاشم ثقافته فك الخط إلى غير مسلم أو حتى يهودي يخترع الآلات الحديثة، ففي المجتمعات السليمة تقدم الأعمال أولاً، ثم يذكر بعدئذ أصحابها، وهذا ما استطاعت الأمم الأخرى أن تفعله في العصر الحاضر، بأن نفضت عن نفسها آفات الماضي. أما في المجتمعات المتخلفة فإن الأسماء تذكر أولاً، ثم تتصيد لها الأمجاد، هذه ما كان يخافه إقبال على المسلمين.

إن ذكر إقبال لشخصيات غير مسلمة في شعره، يوضح لنا أن إقبال يعرف الحق بالرجال لكي يستفيد من أفكارهم، بصرف النظر عن هوية أصحابه، كما أنه ذو فكر مستنير صقلته الدراسة المستفيضة لمنابع الثقافة الإسلامية الهندية، التي تربى عليها منذ صغره ، ثم دراسة الثقافات المغايرة التي يعتنقها من هم على غير ثقافته ، وهو في الحالتين يعمل عقله وفكره ، ويجعل الحق هدفاً لا يحيد عنه ، ومن هنا وجدناه يبدي احتراماً وتقديراً للإنسان بصفة عامة، وهذا هو سر عظمة فكر إقبال.

هوامش

١ ــ ينحدر محمد إقبال من أسرة برهمية(هندوكية)، كانت تعيش في منطقة كشمير بشمال الهند، وقد اعتنق أجداده الإسلام في القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك قبل مائة عام من إنشاء الإمبراطورية المغولية بالهند، *وقد هاجر جده الأعلى إلى مدينة سيالكوت بإقليم البنجاب، حيث ولد إقبال في نوفمبر ١٨٧٧م.* لمزيد من التفصيل: سيد نذير نيازي دانائى راز لاهور ١٩٧٧م.

٢ ــ إقبال كليلت اقبال بال جبريل ص ٣٩٩.

٣ – سومنات : هي منطقة بالكجرات بالهند، وكان بها أكبر معابد الهنادكة ، الذي حطمه السلطان محمود الغزنوي أثناء غزوه للهند في القرن العاشر الميلادي.

٤ ــ البراهمة: أي الأشراف ، أعلى الطبقات في النظام الطبقي الهندوكي.

٥ ــ نقلاً عن : عبد الوهاب عزام اقبال سيرته ص١٦.

٦ ــ كليات اقبال بال جبريل ص٣٢٠.

٧ ــ سرسيد (١٨١٧/١٨٩٨م)، وهوعلم من أعلام المصلحين المسلمين في العصر الحديث، عمل في الميدان السياسي والتربوي لانتشال المسلمين من حياة التخلف والعزلة، وله عدد كبير من المؤلفات أهمها: "حياة محمد" و" تفسير القرآن".

٨ ــ ارنولد(١٨٦٤/١٩٣٠م)، مستشرق إنجليزي كبير، اشتغل بالتدريس في كلية على جره بالهند، ثم انتقل بعد ذلك إلى لاهور، وشغل كرسي الفلسفة في كلية لاهور عندما كاالتحق بها إقبال،ثم عاد إلى لندن وشغل منصب عميد قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وكان واسع الاطلاع بالثقافة الإسلامية.

٩ – مير حسن: يقترن ذكر هذا الرجل الصوفي دائماً بسيرة إقبال، وقد أشاد إقبال بدور هذا الرجل في صياغة أفكاره الأولى، حيث كان أستاذاً للغة العربية في كلية سيالكوت، وكان على معرفة كبيرة بالفارسية والثقافة الإسلامية، وقد وفى إقبال لأستاذه، فأشاد به في شعره، وقد توفى مير حسن عام ١٩٢٩م.

١٠ ــ كليات إقبال المقدمة

١١ – من كبار المستشرقين الإنجليز؛ المتخصصين في الآداب الشرقية والثقافة الإسلامية، جمعتهما الصداقة مع إقبال عندما كان في لندن، ولهما كتب عديدة عن الأدب الفارسي والثقافة الإسلامية.

١٢ ــ كليات اقبال بال جبريل ص ٢٩٢ــ ٢٩٣.

١٣ ــ هو مذهب فلفي هندوكي يرى أصحابه أن الوجود حقيقة واحدة، وأن التعدد فيه أمر قضت به الحواس الظاهرة والعقل المحدود. فالموجود الحقيقي، هو الذات العليا(الله)، أما العوالم المادية الأخرى، فهي"مايا"؛ أي وهم وخداع لا حقيقة لوجودها.

١٤ ــ د/ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ط١١ القاهرة ١٩٨٥م ص٢٥ وما بعدها.

١٥ ــ كليات اقبال ضرب كليم ص ٢٣١ــ ٢٣٢.

١٦ – بخارى مدينة في دولة ازبكستان.

١٧ – بدخشان مدينة في شمال شرقي أفغانستان.

١٨ ــ اقبال تجديد التكير الديني ترجمة عباس العقاد ط٢ القاهرة ١٩٦٨م المقدمة .

١٩ ــ كليات اقبال بال جبريل ص٢٩٧.

٢٠ ــ كليات اقبال بال جبريل ص٣١٥.

٢١ ــ كليات اقبال بال جبريل ص ٣١١.

٢٢ ــ المصدر السابق ص ٣٨٣ــ ٣٨٤.

٢٣ – هذه واحدة من أهم الآثار الفكرية، التي تركها إقبال، جمعت في كتاب يحمل العنوان المذكور أعلاه، وقد ترجمها إلى العربية أستاذنا العقاد، وراجعها عبد العزيز المراغي، ومهدي علام، ونشرتها لجنة التأليف والترجم عام ١٩٥٥م.

٢٤ ــ كليات اقبال بالْ جبريل ص ٣٠٨.

٢٥ ــ كليات اقبال بال جبريل ص ٣٦٨.

٢٦ ــ نقلاً عن عبد الوهاب عزام إقبال سيرته وفلسفته ص٣٥.

٢٧ ــ المصدر السابق ص ٣٣.

٢٨ ــ كليات اقبال بانگ درا ص ٢٢٢.

٢٩ ــ المصدر السابق ص٢٣٥.

٣٠ ــ كليات اقبال بال جبريل ص٢٦٥.

٣١ ــ كليات اقبل ضرب كليم ص٤٦٤.

٣٢ ــ نقلاً عن: عبد الوهاب عزام إقبال ص ٥١ــ٥٢.

ثبت بأهم المراجع:

أولاً المراجع الأجنبية:

١ ــ افتخار احمد صديقي عروج اقبال (اردو) لاهور ١٩٨٧م .

٢ ــ سيد نذير نيازي دانائى راز لاهور ١٩٧٧م.

٣ ــ عبد المجيد سالك ذكر إقبال (اردو) ط٢ لاهور ١٩٨٣م.

٤ ــ غلام رسول مهر مطالب بانگ درا (اردو) لاهور ١٩٨٢م.
٥ ــ كيان جند ابتدائى كلام اقبال بترتيب مه وسال حيدر اباد الدكن ١٩٧٥.
٦ ــ كليات إقبال (اردو) ط١ كتب خانه حميديه (اردو) دهلى ١٩٨١م .
٧ ــ ماهانه مخزن لاهور بابت اكست ١٩١٣(اردو) جلد٢٥ نمبر ٥ .
٨ ــ ماهانه كتاب لاهور بابت جولائي/ اكست ١٩٧١ جلد ٥ نمبر ١١ .
٩ ــ محمد عزير اسلام كے علاوه مذاهب كى ترويج مين اردو كا حصه ط ٢ انجمن ترقى اردو هند ١٩٨٩م .
١٠ ــ محمد اقبال جاويد نامه (فارسي) لاهور ١٩٧٨م .
١١ ــ Classical Sanskrit Literature by Berradale Keith نقلاً عن ثقافة الهند العدد ٤ دلهي ١٩٦٠ م.

ثانياً المراجع العربية:

١٢ ــ إمام عبد الفتاح إمام المعتقدات الدينية لدى الشعوب عالم المعرفة الكويت العدد ١٧٣ مايو ١٩٩٣م .
١٣ ــ عباس العقاد تجديد التفكير الديني في الإسلام ط٢ القاهرة ١٩٦٨م.
١٤ ــ عبد المعين ملوحي محمد إقبال شاعر باكستان الكبير ديوان جناح جبريل ط١ دمشق ١٩٧٨م.
١٥ ــ عبد الوهاب عزام محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره ط٣ لاهور ١٩٨٥.
١٦ــ محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالستعمار الغربي ط١١ القاهرة ١٩٨٥.
١٧ــ محمد السعيد جمال الدين رسالة الخلود أو جاويد نامه القاهرة ١٩٧٤م. ١٨ــ محمد إسماعيل الندوي الهند القديمة حضاراتها وديانتها دار الشعب القاهرة ١٩٧٠م.
١٩ ــ محمد اللتاني محمد إقبال مفكراً إسلامياً ط١ المغرب ١٩٧٨م.
٢٠ــ وول ديورانت قصة الحضارة ج٣ ترجمة : زكي نجيب محمود القاهرة ب. ت.